الفصل الخامس عشر
تطور صناعة الكتاب في أوروبا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر

حدثت خلال هذين القرنين تطورات سياسية ودينية واقتصادية وثقافية ضخمة؛ لم تمر دون أن تترك آثارها على الكتاب وصناعته .

فقد ظهر الاصلاح الديني في القرن السادس عشر وانشقت الكنيسة على نفسها وظهرت الحركة البروتستانتية التي دعت إلى إصلاح الكنيسة، واعتمدت على نشر الكلمة المطبوعة بين الجماهير مما أدى إلى ازدهار اللغات الوطنية لأن هذه الحركة دعت إلى استعمال اللغة الوطنية في العبادة بدلاً من اللاتينية. كذلك نتج عن الحركة الاصلاحية هذه حروب كثيرة جداً مما أدى إلى احراق الكتب وتدمير المكتبات وكان مسرحها في الغالب ألمانيا، مما أدى إلى انحطاط طباعة الكتب فيها. كذلك برزت الدول الوطنية الكبرى في هذا العصر وبدأ الصراع بينها من أجل النفوذ والاستعمار كفرنسا وانكلترا وهولندا واسبانيا. وشاهدت نهاية هذا القرن أفول نجم كل من هولندا واسبانيا وبقيت فرنسا وانكلترا في الميدان.

ولقد شجع الحكام والملوك الفنانين والكتاب والأدباء مما كان له أثره في ازدهار فن الكتاب ولا سيما في فرنسا. كذلك انتقل فن الطباعة في أواخر هذا العصر إلى العالم الجديد وفتحت امامه امكانات ضخمة.

ولقد استغل لوثر وانصاره الكلمة المطبوعة باللغة الوطنية، وألغوا العبادة باللغة اللاتينية وأحلوا محلها اللغة الألمانية، واعتباراً من سنة ١٥١٧م فما بعد انهالت سيول المطبوعات على ألمانيا والبلاد المجاورة ووجدت بها الحركة الدينية الجديدة سلاحاً من أمضى اسلحتها، مما أدى إلى ازدهار حركة الطباعة في ألمانيا. ولم يكن المقصود من الطباعة النواحي الفنية وإنما كان الهدف من الطباعة ايصال تعاليم لوثر وحركته إلى جميع جماهير الشعب وتمكينهم من الحصول على هذه المطبوعات بثمن بخس لتحقيق الأهداف المرجوة من

الحركة الدينية. ولذلك فقد انحط نوع الورق واستعملت في الزخرفة الكليشيهات التالفة وأصبحت الطباعة تدريجياً عملية آلية قبيحة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد تسبب الاصلاح الديني في نشر الكتاب بين أفراد الشعب إلى حد لم يكن معروفاً من قبل وبلغ تأثيره حداً كبيراً بحيث يمكن القول بحق أن جذور الجهود المبذولة في دول العالم، وبشكل خاص في أوروبا لنشر التعليم وتعميمه بين جميع أفراد الشعب إنما تعود إلى اللوثرية واهتمامها بالحياة العقلية لأبناء الشعب.

ولقد احتلت المانيا الشمالية المكانة الأولى بالنسبة لألمانيا في القرن السادس عشر، وذلك بعد أن انعدم التعاون فيها بين الحفارين على الخشب والطابعين، وتحولت مدينة ووتنبرغ إلى مركز هام في عالم الكتب. كما صار انتاج لوثر الغزير في العظات والمؤلفات الجدلية والتهذيبية موضع تقليد متعدد من جانب المطابع، كما ساعد التجار المتجولون على تنشيط بيع هذه الكتب بكميات كبرى.

ولقد نفدت خلال ثلاثة أشهر الطبعة الأولى من ترجمة العهد الجديد إلى الألمانية والتي قام بها لوثر وطبعت سنة ١٥٢٢م في خمسة آلاف نسخة. ثم أعيد طبع هذا الكتاب بكميات هائلة [١٠٠ ألف نسخة] كما نجحت طبعات كتب لوثر الخاصة بالتعاليم الدينية.

غير أن فن الطباعة وصل إلى درجة راقية كل الرقي في فرنسا، في نفس الوقت، على يد الفنان القدير غوفروا توري.

كان ملوك فرنسا في أوائل القرن السادس عشر ملوكاً متنورين وجمعوا حولهم العلماء والفنانين، ولذلك ازدهرت في فرنسا نهضة أدبية وازدهر فيها فن الطباعة، ولا سيما عندما هجر فنان الكتب الكبير غوفروا توري ميدان العلم وانضم إلى ميدان الفن وذلك حوالي سنة ١٥٢٠م.

كانت الحروف القوطية لم تزل سائدة في كتب فرنسا آنذاك، وإن كان الأثر الإيطالي قد بدأ في الظهور أيضاً في هذا الميدان حيث كانت الحروف الرومانية التي أدخلت إلى باريس سنة ١٥٠٣م قد استخدمت في طباعة كثير من الكتب. غير أن ازدهار الحرف الروماني وتنسيق حركة الكتاب في فرنسا بصفة عامة لم يبدأ إلا على يد توري المذكور آنفاً. ذلك أن توري كان ذا مواهب عالية كرسام وحفار للكليشيهات الزخرفية الطباعية. ولقد اشتغل أول أمره استاذاً في إحدى الكليات، وزار ايطاليا عدداً من المرات، وأخيراً

دخل ميدان الكتاب والطباعة سنة ١٥١٨م في باريس مستوحياً في ذلك النماذج الايطالية فصار تاجر كتب وطابعاً، وما لبث أن احتل مكانة مرموقة بسرعة بفضل مواهبه العديدة كرسام وحفار وصاهر للحروف وصاحب نظريات في الطباعة.

ونجد طابعه الشخصي المتأثر بروح النهضة الايطالية بارزاً في أول كتاب مصور نشره وهو كتاب «**ساعات الفروض**». على أن روح النهضة تبدو بقوة على الأخص في كتاب من أشهر كتب توري أصدره سنة ١٥٢٩م بعنوان Champfleusy، ويعالج فيه تصحيح الأسلوب، كما يعالج الجمال الفني للطباعة. ويعدُّ هذا الكتاب من أشهر أوائل الكتب الذي حاول أن يحدد النسب بين حروف الطباعة، وان يعطي نظريات عامة تتعلق بالزخرفة وعلاقتها بالنص. ويعدُّ هذا الكتاب عملاً مبتكراً وبداية عصر جديد في تاريخ فن الكتاب الفرنسي.

ولقد خطت الطباعة كلها في فرنسا، وبشكل خاص الحروف الرومانية، خطوات واسعة إلى الأمام على يد أسرة فرنسية من الطابعين في باريس هي أسرة أستين الشهيرة التي نبغ فيها عدد من الطابعين وظلت أكثر من نصف قرن أكبر طابع للكتب في فرنسا كلها، وكان لها علاقات اقتصادية وطباعية مع عدد كبير من بلدان أوروبا وخاصة مع أسرة فوجر في ألمانيا، وهي أسرة اشتهرت بحبها للكتب الفنية وبجمعها مجموعات رائعة من هذه الكتب.

كذلك اشتهر في أواخر القرن السادس عشر في هولندا طابع فنان من أشهر من عرفه عالم الكتب هو الفنان بلانتان؛ الذي كان فرنسياً ثم انتقل إلى هولندا واشتغل بالطباعة والنشر، وأسس مطبعة له في انفرس واشتهر بفنه إلى حد أن اسمه صار علماً في تاريخ الطباعة.

أنتج بلانتان خلال حياته العملية التي انتهت سنة ١٥٨٩م أكثر من ألف وستمائة كتاب. وكان بعضها على أعظم جانب من الأهمية. ولقد أصدر توراة كبيرة في ثماني مجلدات بين عامي ١٥٦٩ و١٥٧٣م وطبع نصها بخمس لغات أوروبية.

وكانت له سوق تجارية واسعة؛ فقد أغرقت كتبه أسواق المانيا واسكاندنافيا وفرنسا وانكلترا واسبانيا وطبع بمعظم اللغات الأوروبية، وطبع كتباً قانونية وأدبية ولغوية ورياضية وعلمية وغير ذلك، كما كانت له فروع في ليدن وباريس. وقد شملت مصانعه في انفرس

مجموعة كبيرة من الطابعين وما يتبعهم، ظلت هذه المصانع حية نشطة تعمل حتى سنة ١٨٧٦م عندما اشترتها الحكومة البلجيكية وجعلتها متحفاً اسمه متحف بلانتان ـ موريتوس، وهو مشهور في جميع أرجاء العالم.

كذلك اشتهر في هذا القرن في فرنسا الفنان لوكلير Lecler الذي كان مشغوفاً بالرياضيات، فرسم سلسلة كاملة من الأشكال التي تختلط فيها الخطوط الهندسية بالمناظر الطبيعية الجميلة.

ولكن البلدين اللذين احتلا مكان الصدارة في انتاج الكتب في أوروبا في هذا القرن هما بلجيكا وهولندا، ويعود ذلك إلى التفوق السياسي الذي مارسته الأراضي الواطئة، كما يعود إلى تفوق مركزها في عالم العلم والأدب.

فقد اشتهرت جامعة ليدن في كل أرجاء أوروبا، وقصدها الطلاب من جميع أرجاء الدنيا لحضور دروس أشهر الأساتذة .

ولقد اشتهرت في هولندا أسرة إلزفير Elzevir في ميدان الطباعة اشتهاراً عظيماً حتى أن اسمها وشهرتها انتشرت في كل أوروبا في هذا القرن. بدأ لودفيك إلزفيرحياته التجارية في بيع الكتب لطلاب جامعة ليدن في أواخر القرن السادس، وما لبث أن توسع في تجارة الكتب اتساعاً فاق الوصف. إذ أن نشاطه امتد ليشمل ألمانيا كلها إلى جانب الأراضي الواطئة.

وقد خلف لودفيك إلزفير أسرة كبيرة من الناشرين والطابعين امتد نشاطها إلى الكثير من المدن الهولندية، وكان أشهر أفراد هذه الأسرة شقيق لودفيك إلزفير وحفيده، وتعد فترة نشاطهما (١٦٢٥–١٦٥٢م) ذروة مجد إلزفير. ولقد اشتهرت هذه الأسرة بطبعاتها الشعبية ذات الحجم الصغير من حجم الاثني عشر لعدد كبير من الكتب. وقد عدَّت هذه الطبعات شيئاً ذا صبغة شعبية، وما لبثت أن كثر عليها الطلب بسبب حجمها السهل وثمنها المعتدل. وهذا يذكرنا بطبعات الدوس للكتب الكلاسيكية في البندقية. ولكن هذه الطبعات لا توازن بطبعات الدوس من حيث الدقة اللغوية للنص، إلا أنها بفضل نقاء حروفها وصفائها اكتسبت مظهراً مهيباً.

كذلك قامت أسرة إلزفير بطبع كتب أخرى غير كلاسيكية بجانب الكلاسيكية. وقام أحد أحفاد لودفيك إلزفير واسمه أيضاً لودفيك بطبع كتب الفيلسوف الفرنسي ديكارت

وذلك بعد أن استقر في امستردام، وهو نفسه طبع كتب كبار المؤلفين الفرنسيين من أمثال موليير وكورني وراسين وباسكال وغيرهم.

لقد فاق إلزفير في نشاطهم التجاري بالكتب كل من عاصرهم، فلم يضارعهم أحد في سعة علاقاتهم التجارية وقد هيؤوا للأدب الفرنسي في عصرهم انتشاراً كبيراً بإعادة طبعهم الكتب الفرنسية، فنجحوا في عقد صفقات ضخمة مع إنكلترا.

ووجد في هولندا أيضاً في الفترة نفسها مؤسسة طباعية أخرى أسستها أسرة بلاي؛ وهي أسرة اشتهرت بطبعها المصورات والخرائط والأطالس. وقد نالت هذه الأسرة شهرتها بطبعها أطلساً شهيراً جداً وضعه أحد أبنائها واسمه جوان وطبعه الأب وليام سنة ١٦٠٢م في أحد عشر مجلداً بحجم النصف. وعلى الرغم من كبر حجم هذا الأطلس وارتفاع ثمنه إلا أنه كان مطلوباً للغاية. ولم يزل ذا قيمة حتى أيامنا هذه.

وإذا ألقينا نظرة عجلى على تطور فن الكتاب المتمثل بزخرفته وتجليده وما شابه من عناصر جمالية، نجد أن هذا العصر شاهد اتجاهين متعاكسين : الأول : اضمحلال الحفر على الخشب، والثاني : ازدهار الحفر على النحاس.

لقد ظل الحفر على الخشب سائداً في أوربا حتى أوائل القرن السادس عشر، وإن يكن فقد الكثير من أهميته وقيمته الفنية. ولقد زخرف كبار الطابعين في أوائل هذا القرن كتبهم بزخارف محفورة على الخشب، كما فعل طابع الكتب الكبير بلانتان الذي زخرف كتبه بالكثير من الصور المحفورة على الخشب. كما انتشر هذا الفن في ألمانيا في أواسط القرن السادس عشر. ولقد أصبحت فرانكفورت في ألمانيا مركزاً لهذا النوع من النشاط الفني وظهر فيها كثير من طبعات التوراة في حجم النصف، ومن أكثر هذه الكتب شيوعاً كتاب مصور بصور محفورة على الخشب أصدره عام ١٥٦٤م جوست أمان Jost Amman بعنوان «**وصف جميع حرف الأرض**». فنجد في هذا الكتاب مثلاً أقدم الصور التي تمثل المطبعة ومصنعاً للتجليد وآخر للورق.

ولم يلبث الحفر على الخشب أن اضمحل تدريجياً بوجه عام خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وذلك بسبب المبالغة في انتاجه بالجملة، وبسبب انعدام التناسب بين الصور والنص وإهمال الناحية الفنية. وفي تلك اللحظة التي بدأ الحفر على الخشب ينحط ويضمحل أطل برأسه الحفر على النحاس، ودخل في صراع عنيف مع الحفر على الخشب

حتى تمكن في النهاية من التغلب عليه وطرده والحلول محله. وكان الطابع بلانتان قد استعمل الحفر على النحاس في الكثير من طبعاته الجميلة على نطاق واسع. ونتج عن ذلك أن صار الحفر على النحاس مطلوباً للغاية في فرنسا. وقد اعتبر القرنان السابع عشر والثامن عشر عصري الحفر على النحاس. وتعاصر مع انتهاء الحفر على النحاس بداية وانتشار الطبع على الحجر والطرق المعاصرة.

ظهر أول كتاب مصور بصور محفورة على النحاس في فلورنسة من ايطاليا سنة ١٤٧٧م، أما في فرنسا فقد ظهر لأول مرة سنة ١٤٨٨م في مدينة ليون.

طريقة الحفر على النحاس :

كان الرسم في عملية الحفر على الخشب، يحفر على اللوحة الخشبية بحيث يكون ناتئاً ويسمى «الطبع على البارز». أما في الحفر على النحاس فعلى العكس من ذلك، فقد كان الرسم بعد نقله على لوحة النحاس يحفر فيها حفراً باطنياً. وكانت هذه المحفورات الغائرة بعد تحبيرها بحبر الطباعة، تعطي الرسم المطبوع، نتيجة لضغط الورق على اللوحة بقوة. وبعبارة أخرى كان طبع الصور يتم بواسطة هذه المحفورات الغائرة، وينتج عن ذلك عدم امكان طبع الصور في نفس الوقت الذي تطبع فيه الحروف، لأن الحروف بارزة وتطبع على البارز، أما اللوحة فمحفورة بشكل غائر وتطبع «على الغائر». وعلى هذا كان الطبع يتم على دفعتين عند تصوير كتاب مصور بصور محفورة على النحاس، وذلك بطبع الصور أولاً، ثم النص بعد ذلك ، أو بالعكس.

استعمال الحفر على النحاس :

استعمل الحفر على النحاس أول أمره من أجل حفر لوحات مصورة تطبع مستقلة لتظهر في الكتب كصور منفصلة عن النص، ثم أدخل بعد ذلك استعمال الصور المواجهة للعنوان المحفورة على النحاس محشورة قبل العنوان المطبوع للكتاب. ثم ظهرت اللوحات المحفورة على النحاس في الكتب الكبيرة المصورة؛ التي زاد انتاجها تدريجياً، وشاركتها في ذلك الكتب العلمية الكبيرة المصورة التي كان للصور فيها دور خاص، كذلك ظهر خلال القرن السابع عشر كثير من الكتب الضخمة المحتوية على نماذج ولوحات عن فن العمارة والآثار والحفريات وما يكون قد ظهر فيها من آثار. كما نشر عدد كبير من كتب وصف الرحلات والمؤلفات الجغرافية المزودة بالخرائط والمناظر الطبيعية. ومن أشهر أمثلة

هذا النوع كتاب ثيودور دو بيري عن الهند المنشور في عدة مجلدات بين عامي ١٥٩٠ و١٦٢٥م.

القيمة الفنية للحفر على النحاس :

كان الحفر على النحاس صالحاً بصفة خاصة لطبع اللوحات الفنية المصورة، وذلك بفضل إمكانه تقليد دقة الفروق بين الألوان وتقليد الأثر الفني للمناظر الطبيعية. وفيما يتعلق بالمساهمة الفنية الإبداعية للحفار نجد أنها كانت أقل بالنسبة للحفار على النحاس منها بالنسبة للحفار على الخشب.

وإن أهم شيء في الصور الكبيرة المحفورة على النحاس إنما هو نقل الأصل نقلاً دقيقاً ما أمكن. أما في الآثار وتاريخ الفن والتاريخ الطبيعي فإن الحفر على النحاس كان عاملاً مساعداً لا يقدر، وذلك بفضل دقة نقله الصور، واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر عندما ظهرت الصور الفوتوغرافية التي فاقت الطرق القديمة في إتقان إخراج الصور ونسختها.

على أن هذا لا يعني أن الحفارين على النحاس لم يكن لديهم مواهب فنية، فضلاً عن البراعة الكبيرة. فقد وجد بين الحفارين موهوبون نالوا شهرة واسعة كحفارين على النحاس من أمثال السويسري ماثيومريان وغيره.

ولقد ساد في أواسط القرن السابع عشر طراز خليط في زخرفة الكتاب هو طراز مزيج من الواقعية والرمزية امتزجتا مزجاً تاماً في شكل فخم أنيق لإبراز صور الكتاب في إطار فني جميل . ولم تكن الصور في كافة الكتب سوى مجرد صور رمزية وشخصيات، قصد بها الرمز الى الحكمة والحب والعدالة والدولة والدين.

على أن الغالبية العظمى من هذه الصور المواجهة للعنوان، والتي كادت تطغى عليه ولا تكاد تترك فراغاً له، لا يمكن موازنتها ـ من حيث الزخرفة ـ بإنتاج القرن السادس عشر في ميدان الكتاب الفني.

ولعل أشهر رسام اشتهر آنذاك بهذا النوع من الصور هو الرسام الشهير روبينز Rubens، وتبين صوره وصور تلاميذه اتجاه الذوق الفني في ذلك العصر نحو الصور الرمزية، وإن كانت عبقرية الرسام في فن الصور لم تقل عما كانت عليه، بحيث نجد في هذه الصفحات، على الرغم من فخامة مظهرها وبعد رسومها، براعة فنية يندر وجودها

في زخرفة الكتب في هذا العصر.

ولقد اشتهرت فرنسا في القرن السابع عرش بخاصة بازدهار فن الحفر على النحاس فيها ازدهاراً كبيراً، ونبغ فيها رسامون فنانون رفعوا هذا الفن إلى مرتبة عالية. وقد اشتهر بخاصة ليونار غولتييه Leonard Gaultiex كحفار لصور الأشخاص وفي فن حفر صور الأشخاص، الذي صار من أكثر ميادين النشاط الفني إنتاجاً. أما أشهر حفاري الصور على النحاس في فرنسا في القرن السابع عشر فهو جاك كالو الذي عاش في ايطاليا ثم استدعاه لويس الثالث عشر إلى بلاطه في باريس. وقد تأثر كالو بالفن الايطالي ولذا ادخل هذا الفن إلى فرنسا، ويوجد في أعماله مؤثرات فلمنكية وايطالية. ولعل كتاب «**نور الدير**» الذي ظهر سنة ١٦٤٦م المحلى بصور من انتاج كالو أجمل كتاب يحمل رسوماً نفذها هذا الفنان بنفسه. ولم يكن كالو مجرد رسام بارع دقيق الملاحظة موهوب بالكثير من الحماس الممزوج بروح الفكاهة فقط، وإنما كان فوق ذلك صانعاً بلغ القمة، حتى أنه ابتكر طريقة لتغطية اللوحة النحاسية وحفرها بالحامض عدة مرات متوالية، مما يعطي الصورة المحفورة مظهراً مبتكراً للظلال والأبعاد.

وقد أثرت عبقرية كالو أيما تأثير في الكثير من معاصريه أو خلفائه المباشرين، ولعل أشهر هؤلاء كان ابراهام بوس الذي حاكى كالو كل المحاكاة.

ويعد تأسيس ريشيليو للمطبعة الملكية باللوفر سنة ١٦٤٠م حدثاً هاماً في تطور صناعة الكتاب وفنه في فرنسا، إذ خرجت منها سلسلة من الكتب الفاخرة، منها توراة صدرت ١٦٤٢م أعد رسومها نقولا بوسان.

ومع هذا فإن أكبر اسم في النصف الثاني من القرن السابع عشر كان سباستيان لوكلير، الذي ذكرناه آنفاً. كان لوكلير تلميذاً لكالو، وكان شغوفاً بالرياضيات، فرسم سلسلة كاملة من الأشكال التي تختلط فيها الخطوط الهندسية الجامدة بمناظر الطبيعة الجميلة، وينبغي أن نضعه في مصاف بوس وشوفو، باعتباره من الرواد الأوائل في فن الزخارف الصغيرة الذي ازدهر كل الازدهار فيما بعد.

وإذا انتقلنا إلى بحث التجليد الفني للكتب، وجدنا هناك في ألمانيا اتجاهاً نحو التجليدات البارزة بضغط اللوحات المعدنية، ثم اخترعت العجلة الصغيرة، فكانت الزخرفة تتم باستعمال هذه العجلة الصغيرة. ثم انتشر بعد ذلك التذهيب كما عم في

الزخرفة استعمال الرسوم الهندسية العربية والدوائر المتداخلة التي اشتهرت بها التجليدات الايطالية سابقاً.

كذلك انتشر فن التجليد المطبوع بالذهب والمتأثر بالمؤثرات الايطالية في فرنسا في عهد ملوكها لويس الثاني عشر وفرانسوا الأول وهنري الثاني وزوجته. وقد امتازت هذه التجليدات كلها بالأناقة وبغناها بالزخارف، وبعضها زخارف عربية، وبالتذهيب وبالروح الفنية المتمثلة فيها.

أما القرن السابع عشر، فمعظم التجليدات فيه عادية لا ترقى إلى ذلك النوع الفاخر الذي ساد في القرن السابق إذ انها كانت تجليدات للاستعمال العادي.

الجوانب الاقتصادية للكتب :

نجد أن القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهما قرنان زاد فيهما انتاج الكتب كثيراً، كانا عصرين سيئين بالنسبة لمصير الكتاب، وبخاصة القرن السابع عشر الذي كان مليئاً بالحروب وأتلفت فيه أعداد كبيرة من الكتب وصودر كثير منها ونهب عدد هائل من المكتبات في أرجاء أوروبا.

أسواق الكتب في القرن السادس عشر في ألمانيا :

اعتاد جميع تجار الكتب ـ ناشرين ووسطاء ـ أن يجتمعوا مرتين كل عام في الربيع والخريف بسوق مدينة فرانكفورت، حيث يزاولون تجارة الكتب عن طريق المبادلة بها ورقة بورقة، بحيث كانت المحلات التجارية تفيض بالحياة والعمل، وترتب على ذلك رحيل اصحاب المكتبات كلهم من ايطاليا وفرنسا والأراضي الواطئة إلى هذا السوق بفضل موقع المدينة الذي جعل منها أحد المراكز الهامة باوروبا في ذلك العصر.

ثم تفوق سوق لايبزغ بعد ذلك على سوق فرانكفورت في الأهمية، بحيث ظلت لايبزغ حتى القرن العشرين مركز المكتبات الألمانية. وبدئ في سنة ١٥٦٤م في طبع قوائم الكتب التي كانت تباع في السوق؛ ومن قوائم السوق هذه خرجت البيبليوغرافيا الألمانية التي تصدر مرتين في السنة للكتب الألمانية.

وقد وجد أصحاب المكتبات أنفسهم ـ وهم وسط معارك حركةالإصلاح الديني ـ منساقين هم أيضاً إلى هذا النضال، ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى الانضمام إلى أحد الفريقين. أما أغلبية المطابع الألمانية الكبيرة فكانت بأيدي البروتستانت، بينما بقيت مطابع

كولونيا ومنيز وحدها تقوم بدور ما في خدمة الكاثوليك.

ولقد أثار الإصلاح البروتستانتي نشاطاً أدبياً واسعاً ودعا إلى نشر الثقافة والكلمة المطبوعة بين أكبر عدد ممكن من الناس، إلا أنه كان في نفس الوقت نذيراً بالقضاء على عدد كبير من الكتب الموجودة، ذلك أنه اضطر في نضاله ضد الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاجمة المطبوعات البابوية. ومن المؤكد أن كثيراً من المخطوطات القديمة والمطبوعات الأولى قد نالها العبث في تلك الفترة المضطربة. كذلك ساهمت الحروب التي نشبت في القرن السادس عشر في ألمانيا. وخاصة حرب الفلاحين في اندثار مكتبات الأديرة حيث بلغ عدد الأديرة التي نهبت في احدى مقاطعات المانيا سبعين ديراً دمرت مكتباتها، والشيء نفسه صحيح في جميع أنحاء البلاد التي نشبت فيها الاضطرابات، إذ أحرقت الكتب الموجودة في الأديرة أو مزقت أو ألقيت في الماء أو بيعت بالوزن، وحدث الشيء نفسه فيما بعد في مكتبات أديرة فرنسا في عصر الحروب الدينية.

ولكن يجب ألا نغفل عن أن الكنيسة اللوثرية لم تغفل عن قيمة مخطوطات العصر الوسيط عقب فورة نضالها الأول، من ذلك قرارها الذي صدر سنة ١٥٧٧م والذي ينص على أن «كتب الكنيسة القديمة مثل كتب القداس والمزامير وكتب التوراة المدونة على الورق أو الرق، لا ينبغي التخلص منها أو استعمالها للتجليد».

كذلك ازدهرت صناعة وتجارة الكتب في هولندا في القرن السادس عشر، وقد رأينا كيف ازدهرت مؤسسة إلزفير في هولندا وكيف اتسع نشاطها في ميدان تجارة الكتب اتساعاً فاق نشاط كل من عاصرها.

وقد نجح أعضاء هذه الأسرة بعقد صفقات ضخمة مع انكلترا، ذلك لأن كل تجارة الكتب التي قامت بين انكلترا والقارة الأوروبية كانت تمر حينئذٍ في هولندا، وكان لإلزفير في هذا المجال المقام الأول.

بيع الكتب بالمزاد في أوروبا في القرن السابع عشر

احتلت هولندا في القرن السابع عشر مكانة كبرى في تجارة الكتب الأوروبية، حتى إنها بزت فرنسا في هذا المجال، مما جعل الأدب الفرنسي يدين بمعظم انتشاره الى التقليدات الهولندية.

كذلك ظهر في السنوات الأولى من القرن السابع عشر شكل جديد من أشكال تجارة

الكتب، حينما بدأت تدخل ميدان المزاودات العامة لتباع فيها لمن يدفع أعلى ثمن.

وكانت هولندا في هذا المجال أيضاً هي البادئة. وقد تمت في ليدن المبيعات الأولى للكتب بالمزاد، وما لبث التجار أن أدركوا بعد ذلك بقليل، أنهم اهتدوا إلى طريقة لعقد الصفقات تضمن مصلحة البائع والشاري معاً. ولكن لم تلبث أن ارتفعت الأصوات شاكية من أن كثيراً من التجار القائمين على هذا النوع من المبيعات بدؤوا يستغلون الفرص للتخلص من بعض الكتب التافهة، وذلك بتصريفها خلسة ضمن الكتب المباعة بالمزاد. وقد اكتسبت مبيعات الكتب في هولندا، بعد فترة، أهمية دولية ولفتت أنظار الدول الأجنبية إليها. من ذلك إدخال هذه العادة لأول مرة إلى انكلترا (لندن) سنة ١٦٧٦م ومن ثم انتشرت طريقة بيع الكتب بالمزاد في كل انكلترا.

وانتشرت طريقة بيع الكتب بالمزاد أيضاً في كل من المانيا وفرنسا. ولما وصلت إلى ساكونيا سنة ١٦٧٠م حاول تجار الكتب مقاومتها، ولكن عبثاً.

وإذا أردنا أن نبحث العوامل التي أثرت على صناعة الكتاب وتجارته خلال القرن السابع عشر لاحظنا أن حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨–١٦٤٨م) التي نشبت في ألمانيا كانت ذات أثر مدمر على اقتصاد المانيا ككل. وقد نال الكتاب حصته كاملة من دمار هذه الحرب. فقد تسببت الحرب بحدوث خراب شامل تلاه فقر مدقع. نتج عنه ضعف في الثقافة العامة لم يزل إلا تدريجياً. وقد حدث مثل ذلك في فرنسا في أواخر القرن السادس عشر في عهد الحروب الدينية (١٥٦٢–١٥٩٨م). كما وأن الصراع الدامي والانقلاب الشامل في الحياة في هذه الفترة أيضاً، كل ذلك كان وبالاً على ثقافة الدراسات الأدبية وهواية الكتب.

أزمة الكتاب الألماني :

لم يرسل الناشرون الألمان إلى أسواق فرانكفورت ولايبزغ سنة ١٦٣٥م سوى ٢٨٦ كتاباً جديداً، مقابل ١٣٥٨ كتاباً عام ١٦١٣م. ولم يرتفع الانتاج إلى مستواه القديم إلا في منتصف القرن الثامن عشر، وهي نسبة تتفق تماماً مع التغيرات التي طرأت على عدد السكان ومستواهم الثقافي. وهذا التدهور هو الذي هيأ الفرصة للهولنديين من أجل رفع مستوى إنتاجهم وبيع كتبهم إلى حد كبير. وقد عانت تجارة الكتب الكثير من التقليد الذي جعل حقوق الناشرين حبراً على ورق، وهذا الشيء صحيح في ألمانيا صحته

في الدانمارك.

أما فيما يتعلق بالتجليد، فقد التزم الألمان بتقاليد القرن السادس عشر، وإن تكن براعة الصناع التي اشتهر بها عدد من التجليدات القديمة قد صارت نادرة.

حرفة الكتاب وتجارته في ألمانيا وفرنسا في القرن السابع عشر

١- المراكز الكبرى لمتاجر الكتب الألمانية :

شهدت متاجر الكتب الألمانية خلال القرن السابع عشر، انتقال مركز الثقل في تجارتها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وكانت سوق الكتب في لايبزغ قد ازدهرت عند نهاية القرن السادس عشر ازدهاراً كبيراً حيث بدأت فهارس هذه السوق في الظهور سنة ١٥٩٤م. على أن حرب الثلاثين عاماً ألقت بهذه السوق في دائرة الإهمال، بحيث احتفظ سوق فرانكفورت القديم بسيادته حتى حوالي سنة ١٦٨٠م عندما استعادت لايبزغ المكانة الأولى وبقيت فيها حتى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م.

كذلك صارت مدن أخرى مثل ڤينا ودرسدن مراكز هامة لتجارة الكتب، بينما زال هذا النشاط من مدن أخرى مثل كولونيا وستراسبورغ . كل هذا التغيير كان ارتباطاً مباشراً بتقهقر المطبوعات اللاتينية التي كانت قد غزت السوق في الماضي على حساب المطبوعات الألمانية.

٢- الطابعون والناشرون :

كان تجار الكتب، إما ناشرين أو وسطاء، وإن كانوا غالباً ما يزاولون العملين معاً، مع تغليب إحدى الصفتين على الأخرى. ولم يعد الأمر متعلقاً بالجمع بين مهنتي الطابع وتاجر الكتب، في يد واحدة، كما كان الحال في الماضي وبدأ انفصال فرعي الصناعة عن بعضهما. ومع ذلك فقد ظلت إلى ذلك الوقت فئة من الطابعين كانوا في الوقت ذاته ناشرين، وهؤلاء هم الذين كانوا طابعي الحكومة والمجالس والدواوين والجامعات. وكان لهم امتياز طبع ونشر الوثائق السياسية للسلطات والمؤسسات والكتب المدرسية والتقاويم والجرائد؛ كما التزموا بتقديم النسخ الالزامية للدولة عن كل طبعة من طبعاتهم، فضلاً عن التزامهم حدود أسعار معينة.

وقد تمتعوا مقابل ذلك بامتيازات عدة ؛ منها الإعفاء من الضرائب والعوائد الجمركية ومجانية السكن .

٣- المجلدون تجار الكتب : تجارة الكتب الصغيرة :

كذلك كانت تحدث مخالفات، كثيرة في ميادين تجارة الكتب : منها ما كان يفعله مجلدو المدن الصغيرة، الذين لم تكن صناعتهم تدر عليهم أرباحاً كافية، حيث وسعوا ميدان نشاطهم بالاشتغال بتجارة الورق والكتب الشعبية المختلفة والكتب الصغيرة. وكانت هذه الكتب من أكثر الكتب رواجاً آنذاك.

وكان هناك مؤسسات كبيرة للتجليد اضطرت للانسياق في ميدان تجارة الكتب، بسبب أن بعض الناشرين كانوا يجلدون كتبهم الجديدة، ويدفعون ثمن هذه التجليدات كتباً أخرى جديدة يعيد المجلد بيعها لحسابه الخاص. وقد أدى هذا التعارض بين مصالح المجلدين ومصالح الوسطاء إلى حدوث اضطرابات، وبعد جدل طويل توصل الطرفان إلى اتفاق سمح بموجبه للمجلدين بالاتجار بالكتب الصغرى فقط.

٤- الرقابة :

عانت سوق الكتب الكثير من الخلافات بين التجار والصناع، ولكنها عانت صعوبات من نوع آخر، ذلك أنه منذ عصر الطباعة الأول كان لابد من أخذ الرقابة بعين الاعتبار.

والرقابة نوعان : دينية وسياسية .

فقد خشيت الكنيسة من تسرب الأفكار المناهضة للعقائد التي تدين بها الكنيسة الرسمية، عبر الكتب التي تنتجها المطابع فحاولت مراقبة ما يطبع، وقد اصدر رئيس أساقفة منيز عام ١٤٨٩م مرسوماً في هذا الموضوع، ثم تلته عدة مراسيم بابوية تعلن صراحة وجوب مراقبة المطابع لحماية الكنيسة من خطر نشر المؤلفات الإلحادية.

وبدأت الكنيسة الكاثوليكية منذ سنة ١٥٦٣م تصدر فهارس بأسماء الكتب المحظور على المؤمنين قراءتها. ونالت جامعة باريس سنة ١٥٢٦م الحق برقابة جميع المطبوعات اللاهوتية في فرنسا.

كذلك شاهد القرن السابع عشر بداية رقابة السلطة السياسية على المطبوعات والمطابع، وقد بدأ ضئيلاً ثم تزايد دورها تدريجياً وتطور حتى أصبح مهماً كل الأهمية في القرن الثامن عشر. لذا يعد القرن السابع عشر عصر الرقابة.

ولما كانت ألمانيا آنذاك مقسمة إلى عدد كبير من الولايات، فقد مارست كل ولاية

رقابتها على المطبوعات بطرق متعددة وحسب معايير مختلفة كل الاختلاف في دقتها وشدتها وصرامتها. وقد أسس إمبراطور ألمانيا لجنة إمبراطورية للقيام بهذه المهمة وللحفاظ على حقوق الإمبراطورية وحقوق الكنيسة. وقد انتقلت الرقابة إلى فرنسا في القرن السادس عشر، وصدر مرسوم ملكي سنة ١٥٦٣م يحرم طبع أو نشر أي كتاب أو رسائل أو غيرها بدون موافقة الحكومة، ويهدد المخالفين بالشنق والخنق. ولكن هذا المرسوم لم ينفذ بدقة، وإنما زادت صرامة الرقابة في عهد ريشيليو ومازاران إبان القرن السابع عشر. ولكن ذلك لم يؤد إلى طبع كثير من الكتب الممنوعة وتوزيعها سراً، بحيث يمكن القول إن المنع لم يؤد إلا إلى زيادة بيع الكتب سراً.

٥- التزوير وحق الامتياز :

يلاحظ أن التزوير قد صار آنذاك وباءً حقيقياً أشد من الرقابة بكثير؛ بحيث قامت محاولة لحماية كل كتاب بإقامة حق امتياز له. وقد صدر أقدم حق امتياز في ألمانيا أوائل القرن السادس عشر. وقد حرم بموجبه إعادة طبع الكتاب. أما إذا كان الامتياز إمبراطورياً فإن قرار الحظر يشمل كل ألمانيا. وكان هذا الحق يسري لمدة سنة أو أكثر. وكانت العقوبة توجب دفع غرامة مالية تتفاوت قلة وكثرة. ومع ذلك فقد استشرى التزوير وانتشر، وكثيراً ما شوه المزورون الكتاب الأصلي، كما كانوا يضيفون له ملاحق ليس لها صلة بالأصل، كذلك سرى هذا الداء إلى فرنسا ووجد بها مزورون كثيرون حتى صدر مرسوم ملكي سنة ١٦٨٦م يتعرض لمسألة التزوير ويحاول منعه. وقد نظم هذا المرسوم تجارة الكتب في فرنسا وصناعتها، ووضع حداً لحالة الفوضى السابقة. فقد نظم الطابعين في طوائف ووضع عليها مراقبين ملكيين، كما نظم التجار والمذهبين والمجلدين في نقابات وطوائف عليها مشرفون ملكيون. وقد حظيت المطابع والمكتبات التجارية في فرنسا بحرية كبيرة نسبياً طيلة القرن السابع عشر. وكانت المحافظة على حق الامتياز في فرنسا أسهل منها في ألمانيا المفككة.

٦- أسعار الكتب :

لم تكن أسعار الكتب قد تحددت بعد في القرن السابع عشر. حقيقة حدد الناشر ثمن بيع الكتاب في الأسواق، إلا أن الاضافات التي كان يتقاضاها التجار المحليون كانت متفاوتة للغاية.

ولم يبدأ نشر الفهارس المبين فيها أسعار الكتب في ألمانيا إلا في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر.

وبموازنة هذه الأسعار بالأسعار الحالية، يلاحظ أنها كانت مرتفعة في ذلك الوقت. من أمثلة ذلك في ميدان الأدب الشعبي، أن عاملاً من مدينة لايبزغ دفع مبلغ سبعة غروس Gros (وهي أصل الكلمة العربية غرش) حوالي سنة ١٧٠٠م من أجل كتاب الأناشيد، وهو يعادل أجره عن يوم كامل. على أن الإنتاج المحلي كان سعره أعلى بقليل من أسعار الكتب المستوردة.

٧- العادات النقابية والاستبداد النقابي في ألمانيا :

تحول صهر الحروف تدريجياً إلى مهنة خاصة، بينما احتمت مهنة الطابعين وراء حواجز العادات الثقافية الصارمة.

وكان الذي يريد تعلم المهنة يلتحق بإحدى مؤسسات الطباعة، وكانت مدة المران للصانع تتراوح بين أربعة أعوام وثمانية. وحتى بعد انتهاء التمرين كان على الصبي أن يمضي بعض الوقت في مرحلة انتقالية قبل أي يصبح زميلاً في نقابة الطابعين. ولبلوغ ذلك كان عليه أن يرشحه أحد الأعضاء القدامى وأن يقبل ترشيحه وأن يمر في سلسلة من المراسم المختلفة في غرابتها. كما كان على المرشح أن يدفع ضريبة معينة وأن يقيم وليمة لزملائه.

وكان الزميل بعد أن يصبح عضواً بالنقابة. يمضي بضع سنين في الغالب في التجول في ألمانيا حيث كان يقابل بالترحاب من قبل زملائه أينما حل. وكان عليه، مقابل ذلك، ألا يقبل أي عمل إطلاقاً في أي مطبعة من المطابع السرية العديدة التي كانت تعيش ـ دون ترخيص من الرقابة ـ على طبع كتابات جدلية مجهولة المؤلف أو مؤلفات تشهير.

ومن المؤكد أن النظام الصارم الذي خضعت له النقابات فيما بعد، لم يكن في بادئ أمره إلا نظاماً دفاعياً عن الطابعين ضد منافسة المطابع السرية. غير أن تلك الحواجز النقابية لم تلبث أن فسدت حتى صارت استبداداً حقيقياً. أما في البلاد الإسكاندنافية، حيث كانت المطابع غالباً في أيدي ألمان وتحت النفوذ الألماني تماماً، فقد خضعت نتيجة لذلك أيضاً للعادات الألمانية النقابية. بينما رفضها الطابعون الهولنديون والفرنسيون والإنكليز. ولم تختف تلك العادات النقابية إلا في بداية القرن التاسع عشر.